الثقافة الأدبية واللغوية

واذا كانت الثقافة الدينية لازمة للداعية في الدرجة الأولى ، فإن الثقافة الأدبية واللغوية لازمة له كذلك . ولكن الأولى تلزمه لزوم المقاصد والغايات ، والثانية تلزمه لزوم الوسائل والأدوات .

واللغة ـ بمفرداتها ونحوها وصرفها ـ لازمة لسلامة اللسان ، وصحة الآداء ، فضلاً عن حسن أثرها في السامع . بل صحة الفهم أيضاً ، فالأخطاء اللغوية إن لم تحرف المعنى وتشوه المراد ـ يمجها الطبع ، وينفر منها السمع .

وانظر كم يقشعر جلدك ، ويضطرب قلبك ، ويتأذى سمعك ، حين تسمع داعية يقول : التُبْعة وهو يريد : التَبِعة . ويذكر الأُهبَة وهو يريد الأُهبَة .

وآخر ينصب المرفوع ، ويرفع المنصوب ، ولا يفرق بين فاعل ومفعول به ، ولا يبالي بإضافة ولا حرف جر .. فلا يكاد ينهي سطراً من الكلام إلا ضَلك فيه ضلّة ، أو لطمك ـ ولطم الخليل وسيبويه معك ـ لطمة أي لطمة .

وكثيراً ما يؤدي اللحن إلى إفساد المعنى ، وإخراجه إلى ما يناقض الشرع والعقل .

وشر ما يكون ذلك إذا كان اللحن في كتاب الله ، كذلك الإمام الذي صلى أعرابي خلفه ، فسمعه يقرأ : « ولا تَنكِحوا المشركين حتى يؤمنوا » قال : ولا إن آمنوا أيضاً لن ننكحهم ! فقيل له : إنه يلحن ، وليس هكذا يُقرأ . فقال : أخروه قبحه الله لا تجعلوه إماماً . فإنه يحل ما حرم الله .

إن المرء لا يستطيع أن يفهم كتاب الله وسنة رسوله بغير التمكن من اللغة وعلومها .

لقد أخبرني بعض طلابي أنهم سمعوا من يقول بأن حواء خلقت أولاً وأن آدم خلق منها بعد . وأن المرأة هي أصل البشرية .

ولما سألت من أين جاء بهذا الكلام ؟ قالوا : من القرآن من أول سورة النساء وما شابهها ـ وهنا أدركت سر الخطأ عند هذا المتحدث وهو جهله باللغة فقد قرأ قوله تعالى من فاتحة سورة النساء « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ... » ففهم منها أن كلمة « زوجها » تعني الرجل وهو آدم في نظره . ولو كان آدم هو المخلوق أولاً والمرأة هي التي خلقت منه لقال : خلق منها زوجتها .. وهذا هو المستعمل عرفا تقول عن الرجل زوج ، وعن المرأ زوجة ـ وغفل هذا الرجل أن القرآن يجب أن تفسر كلماته وفقاً لمدلولها اللغوي لا العرفي ، لأن العرف دائم التبدل . واللغة التي نزل بها القرآن تسمى المرأة زوجاً كالرجل تماماً . ولهذا قال تعالى في قصة آدم اسكن أنت وزوجك الجنة .. ولم يقل وزوجتك . وقال في شأن هاروت وماروت« فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » وانما أتى الرجل من جهله باللغة .

والأدب بشعره ـ ونثره ، وأمثاله وحكمه ، ووصاياه وخطبه ـ مهم للداعية ، يثقف به لسانه ، ويجود أسلوبه ، ويرهف حسه . ويقفه على أبواب من العبارات الرائقة ، والأساليب الفائقة ، والصور المعبرة ، والأمثال السائرة ، والحكم البالغة . ويفتح له نافذة على الروائع والشوامخ ، ويضع يده على مئات بل ألوف من الشواهد البليغة التي يستخدمها الداعية في محلها ، فتقع من القلوب أحسن موقع وأبلغه .

وقد جاء في الحديث : « أن من البيان سحْراً ، وإن من الشعر حِكَماً[1] » وسمع النبي ﷺ ـ الشعر من أكثر من شاعر . واستجاده واستزاد منه . وكان من أصحابه شعراء معروفون مثل : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ،

(١) رواه أحمد وابو داود عن ابن عباس باسناد صحيح .

وعبد الله بن رواحة من الأنصار .

وأذن لحسان أن يذود بلسانه وشعره ، ويرد عنه هجو شعراء قريش ، وقال له : اهجهم وروح القدس معك .

وروى مؤرخو الأدب كثيراً من الشعر للخلفاء الراشدين ، وخصوصاً لعلي رضي الله عنه . فقد روى عنه كثير من الشعر الجيد البليغ ، كما رووا أيضاً لكثير غيرهم .

ومن لم يقل الشعر منهم فقد رواه ورغب في روايته .

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : علموا أبناءكم السباحة والرمايه وركوب الخيل ورووهم ما يجمل من الشعر .

وقالت عائشة رضي الله عنها : رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم .

وقال المقداد بن الأسود : ما كنت أعلم أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ أعلم بشعر ولا فريضة (علم المواريث) من عائشة رضي الله عنها .

وروى عنها ابن أبي مليكة : أنها كانت تنشد قول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجرب .

وتقول : رحم الله لبيداً .. فكيف لو أدرك زماننا هذا ؟ ! .

ثم قالت : إني لأروي ألف بيت له ، وإنه أقل ما أروي لغيره .

وكان ابن عباس من أروى الناس للشعر . حتى حكوا أنه كان يحفظ رائية عمر بن أبي ربيعة ، وكان يستند إلى الشعر في تفسيره للقرآن ، كما يعرف ذلك من محاورته لنافع بن الأزرق .

وقال الشعبي أحد أئمة التابعين بالكوفة : ما أنا لشيء من العلم أقل مني رواية للشعر ، ولو شئت أن أنشد شعراً شهراً ، لا أعيد بيتاً .. لفعلت ! .

ويروى أن زياداً بعث بولده إلى معاوية ، فكاشفه عن فنون من العلـــم ، فوجده عالماً بكل ما سأل عنه ، ثم استنشده الشعر ، فقال : لم أرو منه شيئاً .

فكتب معاوية إلى زياد : ما منعك أن تروّيه الشعر ؟ ! فوالله إن كان العاق ليرويه فيبر ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو ، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل .

وهذا يدلنا على مقدار ما للأدب عامة ، وللشعر خاصة ، من تأثير في النفس البشرية ، كما يدلنا على أن العناية بالأدب ، والتضلع منه ، والاطلاع على مصـــادره والحرص على تقييد أوابده ، وترديد فرائده ، والاستفادة منها عند الحاجة ، أمر لازم للداعية الناجح .

ولا غرو أن جعل الله الآية الكبرى ، والمعجزة العظمى ، لخاتم رسله آية أدبية ، ومعجزة بيانية ، أثرت في خصومها وأنصارها على سواء : القرآن الكريم ، وذلك لينبهنا على قيمة الأدب ومنزلة البيان .

ولنضرب لذلك مثلاً : هب أنك تتحدث عن صلة الرحم ، وبر ذوي القربى وذكرت ما تيسر في الموضوع من الكتاب والسنة ، أفلا يكون مما يوسع أفق حديثك ويزيده تأثيراً على تأثير ، أن تذكر بعض ما حفلت به كتب الأدب في ذلك من شعر ونثر ... فمن ذلك قول علي :

أكرم عشيرتك ، فإنهم جناحك الذي به تطير ، وأصلك الذي إليه تصير .. الخ

ومن ذلك قول طرفة في معلقته :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

وقول الآخر :

أخـــاك أخـــاك ، إن من لا أخاً له .. كســـاع إلى الهيجـــاء بغير سلاح .

وان ابن عم المـرء ـ فاعلم جناحـــه . وهـــل ينهـــض البـــازي بغير جناح ؟

وقول الحماس :

وإن الـــذي بيني وبـــين بـــني أبـــي وبـــين بـــني عمـــي لمختلف جدا

إذا أكلوا لحمي وفرت لحومهـــم وإن هدموا مجدي بنيـــت لهم مجداً

وإن زجروا طيراً بنحـــس تمر بي زجرت لهم طيراً تمر بهم سعـــداً

ولا أحمل الحقـد القديم عليهمـــو وليس كبير القوم من يحمل الحقدا

وقول الآخر :

قومـي همـو قتلـوا أميم أخـي فإذا رميت يصيبني سهمـــي !

فلئـن عفوت لأعفونْ جـلـلا ولئن رميت لأوهنَنْ عظمـــي !

ومن الجوانب المهمة في الثقافة الأدبية : ما تحكيه كتب الأدب من حوار وقصص وأخبار ، كثيراً ما تكون لها قيمة أخلاقية ، أو دلالة تربوية ، فيلتقطها الداعية ذو الحس المرهف ، لينقلها من مجال المتعة بالقراءة إلى مجال الدعوة والتوجيه .

أذكر هنا مثالاً لذلك .. ما حكاه ابن عبد ربه الأندلسي في كتابه : « العقد الفريد » : أن رجلاً يقال له : ابن سلكة ، دخل على الحجاج يشكو إليه ظلمة حلت به على أيدي رجاله . فكان مما قاله للحجاج :

عصى عاص من عرض العشيرة ، فحلق على اسمي[1] . وهدم منزلي ، وحرمت عطائي ! يعني الرجل أن هذا كله أصابه بذنب واحد من العشيرة ! . كما يفعل الطغاة إلى يومنا هذا .

قال الحجاج : هيهات أما سمعت قول الشاعر :

جانيـــك من يجـني عليك وقـــد تعدى الصحـاحَ مبـارك الجُرْبِ

ولرب مأخوذ بذنـــب عشـيرة ونجـا المقارفُ صاحـــبُ الذنب

فقال الرجل : أصلح الله الأمير . إني سمعت الله عز وجل يقول غير هذا . قال : وما ذاك ؟ قال : قال الله تعالى ـ أي على لسان إخوة يوسف ـ : « قالوا يا أيها العزيز ، إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين . قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا اذن لظالمون » .

---

(١) يعني أن اسمه وضع داخل حلقة أو دائرة من المداد كما يفعل أمام المواد التي يرسب فيها التلميذ . وبتعبير العصر : وضع اسمه في القائمة السوداء .

قال الحجاج : على بيزيد بن أبي مسلم .. فمثل بين يديه ، فقال : افكك لهذا عن اسمه ، واصكك له بعطائه ، وابن له منزله ، ومر منادياً ينادي : صدق الله وكذب الشاعر !

فهذه القصة التي ترويها كتب الأدب تدل بوضوح على أن للشريعة الإسلامية سلطانها وهيبتها حتى على طغاة الحكام . وهذه خصيصة فريدة تتميز بها الشريعة الربانية عن الأنظمة والقوانين الوضعية . كما تدلنا على أن أن أطغى الطغاة في العصور الأولى لم يكن ليجرؤ على رفض شريعة الله ، أو تحدى نصوصها ، ولو كان هو الحجاج بن يوسف .

حتى الطرائف والملح الأدبية يجد الداعية الموفق لها مكانها ووقتها ، فينتفع بها ، ليثبت بها معنى معيناً ، أو ليروح بها عن سامعيه . كما قيل : إن القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة .

ويستطيع الداعية الملهم كذلك ، أن يقتبس كثيراً من النصوص الأدبية وبخاصة الشعر الرفيع ـ فينقلها من موضوعها الأصلي الذي سيقت فيه إلى موضوع يراه الداعية أليق لها ، وأحق بها ، وهو كثير .

قال بعضهم : حضرت مجلس الشبلي ، فقام إليه رجل من أصحابه ، فقال له : أوصني ـ فقال : لقد أوصاك الشاعر بقوله :

قالوا : توق ديار الحي ، إن لهـــم عيناً عليك إذا ما نمت لم تنـــم .

وكثيراً ما استعار أهل المحبة لله أشعار العشاق ، من أمثال قيس وجميل وكثير فاستعملوها هم في أغراضها الربانية ، ولم يلتفتوا إلى أنها قيلت في ليلى أو بثينـــة أو عزة . بل ربما بقيت هذه الأسماء ، فلم يبالوا بها .

وقد أنشأ أبو فراس الحمداني أبياتاً من قصيدة يخاطب بها أميره وابن عمه سيف الدولة ، فنقلها الصالحون إلى من لا يجوز أن يخاطب بها غيره ، وهو الله جل جلاله وهي قوله :

فليتك تحلو والحيـــاة مريرة وليتك ترضى والأنام غضـاب
وليت الذي بيني وبينك عامـر وبيني وبين العالمين خـراب
إذا صح منك الود يا غاية المنـى فكل الذي فوق التراب تراب

ورأيت من الناس من ينسبها إلى رابعة العدوية ، والحقيقة أنها لم تُنشأ إلا بعد رابعة العدوية بزمن طويل . .